

كان الرأس العظيم ينحط أكثر فأكثر تحت وطأة شجرة قرونة ، وازدادت الخطوات المترنحة ضعفاً . صار يضطر إلى الوقوف فترات طويلة ، أنهفه نحو الأرض وأذناه المهمومتان تسقطان بارتخاء ، فوجد (بك) مزيداً من الوقت كي يجد الماء لنفسه ويرتاح . وفي مثل هذه اللحظات ، كان يلهث وقد تدلى لسانه الأحمر وثبتت عيناه على الوعل الكبير ، كان يبدو لـ(بك) أن تغييراً كان يطرأ على وجه الأمور . كان بمقدوره أن يحس نأمة جديدة في الأرض . فيما كان الوعل يتهاوى نحو الأرض ، كانت أنواع أخرى من الحياة تدخل . كانت الغابة والجدول والهواء تبدو مفعمة بوجودها . كانت أخبارها محمولة نحوه ، لا بالنظر ، أو الصوت ، أو الرائحة ، ولكن بمعنى آخر ، وأدق . لم يسمع شيئاً ، لم ير شيئاً ، ومع ذلك فقد كان يدري أن الأرض كانت مختلفة على نحو ما ، وأن أشياء غريبة كانت تجري وتستقر خلالها ، فعزم على أن يتحرى بعد أن يكون قد انتهى من العمل الذي بين يديه .

وأخيراً ، عند نهاية اليوم الرابع ، طرح الوعل العظيم أرضاً . وطوال يوم وليلة بقي إلى جانب القليل ، يأكل وينام ، بأقساط متساوية . ثم - إذ ارتاح وانتعش فصار قوياً - أدار وجهه نحو المخيم ونحو جون ثورنتون . انطلق في نطّات هينة طويلة ، واستمر - ساعة بعد ساعة - دون أن يضل الطريق المتشعب المتشابك ، متجهاً باستقامة نحو موطنه عبر بلاد غريبة بثقة في الاتجاه تجعل الانسان وابرته المغناطيسية يحستان العار والخيبة .

وفيما استمر على ذلك ازداد وعياً بالنأمة الجديدة في الأرض . كانت ثمة حياة واسعة فيها تختلف عن الحياة التي كانت هنا طوال الصيف . لم تعد هذه الحقيقة تحمل إليه بطريقة غامضة معقدة . كانت الطيور تتحدث بها ، والسناجب تضج حولها ، وحتى النسمة تهمس بها . وبضع مرات توقف واستنشق هواء الصباح الطازج في شهقات عظيمات ، قارئاً رسالة كانت تجعله